الثورة
الثلاثاء 5 رمضان 1433هـ 24 يوليو 2012م العدد (17416)

ذاكرة المكان

الواقع والأسطورة (5)

أحمد يحيى الديلمي

صنعاء وحجاب النبي أزال

شبه أحدهم ذاكرة صنعاء بعيني أجمل طفلة حالمة تدونان الأحداث كما هي يأبى حياؤهما عليهما التزييف أو اختلاق وقائع أخرى.

هذا هو سر حيوية المدينة وشبابها .. تعاقب الأحداث الجسيمة بحلوها ومرها استعصى عليها أن تدنس وجه المدينة أو أن تلوث وجهها الجميل أو تخفيها لإرادة الغير، قال عنها أمين الريحاني:

صنعاء أنت مليكة الزمان

وأجمل مدينة صاغتها أنامل الرحمن

كثير هم الشعراء والأدباء والكتاب الذين تغزلوا في صنعاء وأبدعوا في وصف جمالها الفتان كل من يزورها تداعبه شوارعها وأزقتها، ينبهر بهندسة وروعة التخطيط ويسحره جمال المباني، أسلوب البناء، العقود القمريات يحلق به الخيال في أورقة الأزمنة، يخشى أن يخذله الخيال في أعماقه، هذا هو الأساس الذي وسع دائرة الاهتمام لدى هذه الشريحة من الناس بالمدينة فكانت محور اهتمامهم وأبدعوا في وصفها فالمدينة هي مصدر إلهام حتى لغير الشعراء والمبدعين من مهندسي الأعمار وعشاق فنون البناء والعمارة وتخطيط المدن فمن شدهم البناء وقالوا إنه يعبر عن روح الإلهام الإنساني ويمني الإبداع بمعانيه السامية وآخرون سحرهم التخطيط والتقسيم وتحديد بساتين الخضرة ومواقع الخدمات.

هذه الصفحات ناصعة البياض عن صنعاء المدينة صنعاء بوابة التاريخ الإنساني في الزمن الغابر هناك صورة أخرى للمدينة رسمها أعداء الحياة من تتلهى بهم الغرائز والشهوات وترسم تطلعاتهم وآمالهم الأهواء والرغبات المريضة بشر بلا ضمائر نفوسهم خالية من الحب طالما استباحوا حنايا طهرها ودنسوا قدسية عفافها وعبثوا بملامح وجهها الجميل.

مع ذلك ظلت المدينة صامدة الأحداث الأليمة التي تعاقبت عليها ربما طالت المباني التي أثرت على الخارطة الديمغرافية للسكان والبهاء لم تؤثر فيها الحوادث والنوازل التي تعاقبت عليها.

الحجاب والقدسية

من الحكايات التي كان يتداولها كبار السن من سكان المدينة أن النبي أزال بعد أن أكمل بناء صنعاء للمرة الثانية حرزها بحجاب خاصة وأن الحجاب حماها من كل النوائب التي تعرضت لها على مر العصور لأن الغزوات لم تنل منها وكانت آثارها المدمرة تطال التوسعات في البناء التي تقام من خلف السور لأن الحجاب أكسب المدينة قدسية خاصة بجعلها عصية على كل الغزاة.

هذه الرواية التقت مع مفردة هامة من مفردات العرف القبلي باعتبار المدينة مهجرة لا يحل فيها القتل أو حتى الثأر ومن اقترف فعلاً من هذا القبيل يلحقه العار وتشوه سمعته بين القبائل لأنه اعتدى على حرمة المدينة وخالف أعراف القبيلة.

المضمون السابق كان له واقعه في الزمن المعاصر إذ يروى أن أحد تجار صنعاء عاد من الحج واستقبله أبناؤه بفرقعة شدة طماش هذا التصرف أزعج الإمام يحيى وأمر بأن يودع السجن لمدة شهر كامل ووافق على إطلاق سراحه بشرط أن يحرر تعهداً من عدة نسخ ليعلق في كل أبواب المدينة، وعندما سأله القاضي عبدالله العمري وكان يومئذ في مقام رئيس الحكومة عن السبب.. أجاب: (أريد أن يعرف كل قبيلي أن صنعاء مهجرة يحرم فيها حتى القريح "الطماش" والمفرقعات الصوتية لأن هذه الأصوات مصدر للفزع وإقلاق السكينة العامة.. ألم تسمع يا قاضي قوله تعالى ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ).

بأهى الله بالأمن كأعظم صفة من صفات بيت الله الحرام، ونحن في العاصمة حاضرة كل اليمنيين يجب أن ينعم الناس فيها بالأمن وأن تظلهم السكينة العامة.

فاجعة 1948م

الكلام السابق غاب في مرحلة لاحقة على خلفية التداعيات الأليمة التي أعقبت ثورة 1948م الدستورية بعد اغتيال الإمام يحيى ومعه القاضي عبدالله العمري وطفل من أحفاد الإمام وحادثة القتل هذه كانت ولا تزال محل استهجان الكثيرين لأن الإمام كان قد بلغ من الكبر عتياً وناهز التسعين من العمر.

ويرى هذا البعض بأن الحادثة ضاعفت من تعاطف اليمنيين وفتحت أبواب العنف وإراقة الدماء وأنه سبب تفاقم الموقف الذي منح الإمام أحمد الفرصة لتخطي ثوابت والده واستباحة صنعاء فأسلوب مقرف ولا أخلاقي إذا لا تزال مشاهد ذلك الاجتياح الهمجي للمدينة من قبل القبائل ماثلة في أذهان أهل صنعاء، فالإمام أحمد بعد أن استعاد زمام الأمر استباح صنعاء بحجة تأديب أهل المدينة لأنهم تواطأوا مع الثوار وكان لهم دور في قتل الإمام فأعطى الضوء الأخضر للقبائل لاقتحام المدينة واستباحة كرامتها والتنكيل بأبنائها.

وهذا ما حدث بالفعل فلقد توافد القبائل من كل حدب وصوب..

احتلوا المساكن وطردوا أبناءها منها إلى أن أكملوا عملية تنظيفها ونهب كل ما فيها لم يتركوا شيئاً فيها حتى النوافذ والقمريات والملابس الخاصة بالرجال والنساء وقد صور الموقف محمد عامر أبناء صنعاء بأسلوب ساخر فقال:

أرضى علينا كما دشمان دخل بالجلافة سط جديد

ومفرسة وزن طن

شل القلاقد وزد شل اللدة لامسافة

بعدا رجع للكنن

القصيدة طويلة أكتفي ما أوردت منها وأعتذر من التقديم والتأخير.

ثورة سياسية أم ثورات اجتماعية؟

السيد يسين*

■ حين قامت ثورات الربيع العربي بداية بتونس الخضراء، والتي لحقتها مصر بعدها بأسابيع قليلة، وسرعان ما لحقت ليبيا بالركب من خلال صراع دموي حاد لم تشهده كل من تونس ومصر، ظننا أن كل ثورة من هذه الثورات إنما هي ثورة سياسية في المقام الأول.

ونعني بذلك أن الهدف الأساسي لهذه الثورات جميعاً هي الانقلاب الجماهيري ضد النظام الاستبدادي القديم، شمولياً كان أو سلطوياً للقضاء على الاحتكار السياسي واستئصال شافة الفساد الذي نخر في كل بنية المجتمع، وإنهاء عهد المظالم الاجتماعية التي عانت منها جماهير المواطنين في البلاد الثلاث التي شهدت هذه الثورات. وقد تبلورت هذه المظالم عبر عقود متعددة من السنين، نتيجة لفساد الحكم وتحالف سلطات الدول مع مجموعات قليلة من رجال أعمال المنحرفين، الذين نهبوا الثروة الوطنية ولم يتركوا حتى الفتات للملايين من أفراد الشعب، وفي مقدمهم عشرات الآلاف من الشباب الذين أنهوا مراحل تعليمهم المختلفة، ثم لم يجدوا لا العمل ولا الأمن ولا الاستقرار. بل إنهم على العكس عانوا من المهانة التي عاملتهم بها أجهزة الدولة المختلفة، بعد أن حرمتهم من حق الحياة وسلبت منهم الكرامة الإنسانية التي يستحقونها بجدارة كمواطنين يسعون إلى العيش الكريم، مثلهم مثل أقرانهم في البلاد المتقدمة.

غير أنه تبين أن الثورة السياسية التي تهدف إلى اقتلاع جذور النظام الاستبدادي القديم، لا بد لها أن تتقدم إلى الأمام وتحاول تأسيس نظام ديمقراطي يقوم على أساس التعددية، وينهض في ضوء مبادئ سيادة القانون من ناحية، واحترام المواطنة من ناحية أخرى.

وفي هذا المجال وجدنا تباينات متعددة بين الدول الثورية الثلاث تونس ومصر وليبيا. ويرد التباين إلى التاريخ الاجتماعي الفريد لكل قطر من ناحية، وإلى طبيعة النظام السياسي الاستبدادي والذي كان مسيطراً قبل الثورة من ناحية أخرى.

فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لتونس يلفت النظر أولاً أن هناك تشابهاً في تطور الفكر السياسي بين تونس ومصر. ولعل من بين معالم التشابه البارزة أن تونس شهدت مصلحاً سياسياً بارزاً هو خير الدين التونسي الذي يمكن من دون مبالغة اعتباره الأب التاريخي للحداثة التونسية، والذي استطاع أن يبلورها من خلال رحلاته الأوروبية المتعددة والتي استخلص دروسها بالتطبيق على الواقع المحلي التونسي.

ونجد في مصر رفاعة رافع الطهطاوي والذي هو في عرف المؤرخين الأب التاريخي للحداثة العربية. وذلك لأنه استطاع من خلال بعثته إلى فرنسا والتي أرسله اليها محمد علي حاكم مصر، أن يستخلص أصول الحداثة الأوروبية والتي أدت إلى التقدم الغربي، وحاول من خلال معادلة الأصالة والمعاصرة أن يبدع نموذجاً حضارياً جديداً يراعي الخصوصية الثقافية المصرية.

وبعيداً من هذه المقارنات التاريخية فإن تونس نجحت بعد الثورة أكثر من مصر في أن تختط مسيرة ديمقراطية عقلانية لأسباب متعددة. أولها ولا شك أنها اختارت أن تبدأ بتشكيل مجلس تأسيسي بالانتخاب لوضع الدستور، على عكس مصر والتي نظم فيها المجلس الأعلى للقوات المسلحة استفتاء حول: هل الدستور أولاً أم الانتخابات أولاً؟ وجاءت الأغلبية في صف الانتخابات أولاً؟ مما أدى إلى مشكلات معقدة ما زالت مصر تعاني منها حتى الآن.

غير أن السبب الثاني المهم في نجاح المسيرة الديمقراطية أن حزب «النهضة» الإسلامي والذي حصل على الغالبية في انتخابات المجلس التأسيسي لم يشأ الاستحواذ على كل مفاصل السلطة في البلاد. ولكنه بتوجيهات مفكره الإسلامي البارز الشيخ راشد الغنوشي ترك رئاسة البلاد لمناضل ليبرالي معروف هو الدكتور منصف المرزوقي، كما أن أحد عناصر حزب «النهضة» تولى رئاسة الوزارة، في حين تركت رئاسة المجلس التأسيسي إلى سياسي علماني. وهذه الخطة الديمقراطي تسير بسلاسة حتى الآن ولم يشبها – للأسف – إلا تحركات التيارات السلفية التي دخلت بغباء تاريخي شديد في مصادمات مع التيارات الليبرالية بل ومع قوى الأمن. وكان موقف حزب «النهضة» ملتبساً لأنه لم يدن التحركات السلفية إدانة قاطعة صريحة. ومعنى ذلك أن قابل الأيام في تونس يمكن أن يشهد صراعات حادة بين العقول السلفية المتحجرة والآفاق الليبرالية المنفتحة.

غير أن جماعة «الإخوان المسلمين» في مصر – على عكس حزب «النهضة» – آثرت أن تسعى إلى الهيمنة الكاملة على مجمل الفضاء السياسي المصري. وذلك لأنها بعد أن حصل حزبها السياسي «الحرية والعدالة» على الأكثرية في مجلسي الشعب والشورى، صممت على الهيمنة الكاملة على تشكيل اللجنة التأسيسية للدستور، ونجحت في إيصال مرشحها لرئاسة الجمهورية الدكتور محمد مرسي.

ورغم أن المحكمة الدستورية العليا المصرية أصدرت حكماً بإبطال مجلس الشعب لخلل دستوري شاب قانون الانتخابات، إلا أن رئيس الجمهورية المنتخب الدكتور مرسي خضع للأسف لتوجيهات جماعة «الإخوان المسلمين»، وحاول أن يلتف حول حكم المحكمة الدستورية العليا بإصدار قرار جمهوري يعيد به مجلس الشعب إلى الحياة، وهو القرار الذي أثار الهيئات القضائية المصرية وفي مقدمها المحكمة الدستورية العليا، والتي أصدرت حكماً جديداً بإلغاء القرار الجمهوري وكأنه لم يكن.

وهكذا أوقعت جماعة «الإخوان المسلمين» رئيس الجمهورية الإخواني في مأزق لا يحسد عليه. وما زالت التجربة الديموقراطية المصرية في حالة تعثر شديد وفي سياق محكمة الفتاوى القانونية المتضاربة، مما يجعل المسار الديموقراطي غير محدد الملامح والاتجاهات حتى الآن.

أما في ليبيا فقد فاجأتنا جميعاً نتيجة انتخابات المجلس التأسيسي بفوز الليبراليين بالغالبية على حساب التيار الإسلامي، مما يعد خروجاً على القاعدة التي برزت في كل من تونس ومصر.

وسنرى في المستقبل القريب كيف ستتطور الأمور في هذه البلاد الثورية الثلاث ونعني تونس ومصر وليبيا.

غير أن الثورة السياسية تكاد أن تكون هي الثورة الأولى التي لم تكتمل بعد، غير أنه عقب الثورة اشتعلت المطالبات والتظاهرات الفئوية العنيفة وخصوصاً في مصر مما أدى إلى توقف عملية الإنتاج في البلاد. ولو حللنا التظاهرات الاحتجاجية لوجدناها تتعلق بالأوضاع العمالية وصراعات العمال مع أصحاب المصانع أو المديرين. وفي هذا المجال نلاحظ أن آليات التفاوض تكاد أن تكون منعدمة أو غير فعالة، وهو ما يجعل العمال يغلقون المصانع ويوقفون الإنتاج حتى يضغطوا على أصحاب المصانع لتحقيق مطالبهم التي قد تكون في بعض الأحيان غير مشروعة أو فيها نوع من أنواع المغالاة الشديدة.

والواقع أن هذا النوع من الاحتجاجات قد يتحول – في بعض الأحيان – إلى تظاهرات فوضوية تؤثر سلباً على مناخ الاستثمار. وذلك إذا أحس المستثمرون أنه ليست هناك قواعد مقننة في العلاقات بين أرباب العمل والعمال وأن التظاهرات الاحتجاجية توقف عملية الإنتاج وتصيبهم بخسائر فادحة، فإن المستثمرين قد يحجمون عن دخول مجال الاستثمار سواء كانوا مصريين أو عرباً أو أجانب. وذلك لأن الاستثمار يحتاج إلى استقرار من ناحية وإلى بيئة قانونية سليمة من ناحية أخرى، بحيث تحل المنازعات أمام المحاكم بسرعة كافية وتعطي لكل ذي حق حقه.

وهناك تظاهرات يقوم بها موظفون من مختلف الفئات للمطالبة برفع الحد الأدنى للأجور أو للحصول على عدد من المزايا، أو لمساواتهم بنظرائهم، أو طلباً للتثبيت من قبل العمالة الموقتة، أو طلب التعيين في وظائف ثابتة.

وهذه التظاهرات تعكس في الواقع اضطراباً شديداً في التنظيم القانوني لأوضاع العاملين في الدولة، وتقصيراً لا حدود له في إعطاء الناس حقوقهم الاقتصادية في ضوء مبدأ تكافؤ الفرص.

وهذه «الثورات الاجتماعية» تكاد أن تكون بالنظر إلى نتائجها الكارثية على مناخ الاستثمار وتدفق الإنتاج أخطر من الثورات السياسية ذاتها.

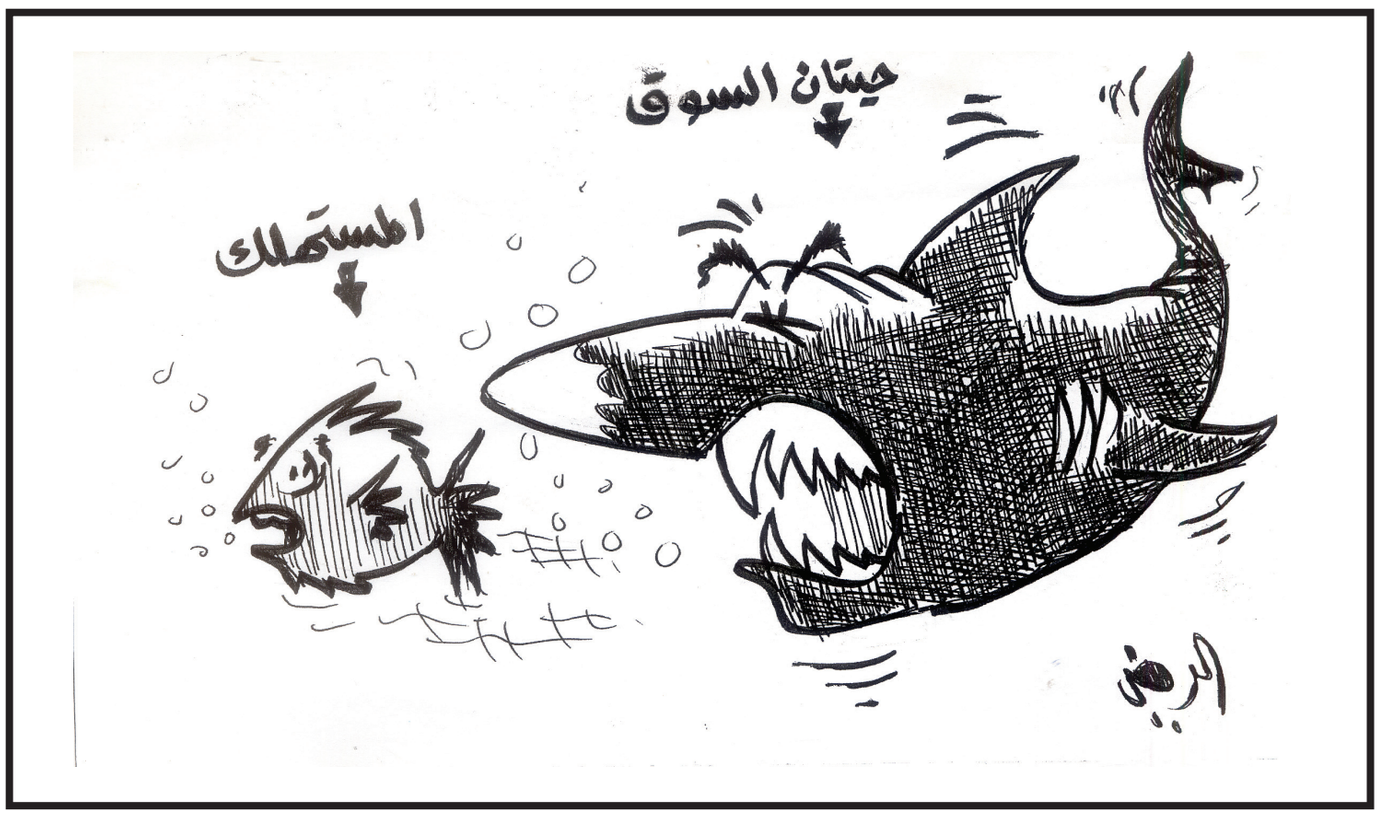

من خلف جدران جوانتنامو

فائز سالم بن عمرو

■ كل شيء في هذا الدنيا زائف .. الحياة، الصدق، الرجال، الوعود، الفتوى . حينما تتحول المبادئ والقيم والثوابت إلى تجارة رابحة، وتفقد بريق الحقيقة، وتتحول إلى مجرد شعارات ثورية، وكلمات تردد بلا هدف "الجهاد، الاستشهاد، المقاومة، المحتل، العدو، الكفر، البراء والولاء" .

ارتسمت الحيرة والندم على محياه وسجايا وجهه الطويل، ونطقت عيناه الحائرة التي يحاول الهروب بها من الكاميرا، وكأنه يريد الهروب من المكالمة، وينهي هذه النقاش الساخن. لا يريد أخي الحبيب معرفة الحقيقة، يتمنى أن يعايش الوهم، لعله يعاتبني، وربما يكرهني أو يحقد عليَّ في قرارة نفسه؛ لأني أشعلت حقيقة نائمة في ذهنه، وأيقظت المارد من سباته .

صحت فيه معاتبا أخي العزيز الحبيب، لقد تغيّرت الأمور . لا تنسَ بأنه مضى على سجنك خلف قضبان المعسكر الأمريكي ما يقارب العشر سنين اختلفت فيها الحياة، وتبدلت الشعارات، وتطوّرت الفتوى، وصارت بنكهة أمريكية . أرجوك أخي صحح مفاهيمك، سجانك الأمريكي أصبح مقدسا، أمسى محررا، وتصفه الفتوى بمناصر الشعب العربي، وتطالب باتباعه ومباركة أقواله وأفعاله التي حررت الشعب العربي من سباته الدكتاتوري الطويل . أرجوك لا تغفل بأن الربيع العربي أمريكي اسما ومسمى ونصرة ومساندة!

تكاثرت المعلومات في ذهنه وأصابه ذهول الصدمة، ولكن في هذه المرة ركّز بعينيه الحادتين، وظهرت على وجه الصرامة وملامح الشجاعة والاستغراب قائلا : مهلك عليّ، أوضح الأمور بسرعة ولا تتأخر ؟! . ابتسمت وأيقنت بأن العلاج بالصدمة حرك أفكاره القديمة البالية، فإجابته ألا أصدق ما يحصل وكثيرا ما أكذب ما أسمع!، ولا أدري ما حدث للدنيا، فالإسلامي الذي يرفع راية الجهاد، ويصوب بندقيته نحو الأجنبي، ويجوب السهول والوديان والجبال لتحرير البلاد الإسلامية من المستعمر، هو الآن يطلب المستعمر الأمريكي والغربي، ويناشدهم احتلال أرضه، وقتل شعبه ما دام الإسلام السياسي في النهاية من سيجني الثمرة، ويفوز بجائزة الرضا الأمريكي . فالفتوى أخي الحبيب ترى جيوش الصليبية قوات صديقة، وحلف الناتو صار هو المحرر . لا تسألني عما أعرف، ولكني موقن بأني صرت عبدا للمستعمر الأجنبي والأمريكي، وليتني مكانك لقبلت يدي وجبين السجان الأمريكي، فهو المحرر الجديد ؟! .

قاطع صوت المكالمة صوت أجش جهوري به بحة واضحة، شروط المكالمة بين الصليب الأحمر وبين الحكومة الأمريكية تنص بأن المكالمة المرئية خاضعة للمراقبة، وخاضعة لقوانين الجيش الأمريكي، وتوجب عدم الخوض في الأمور السياسية، والاقتصار على الأخبار العائلية والشخصية، وبسبب مخالفتك شروط المكالمة سنضطر لقطع المكالمة المرئية، ولا نتحمل أي مسؤولية بسبب قطع المكالمة، وتبدد صوت المكالمة بأصوات صفارات متواصلة.

faizbinamar12@gmail.com

فيسبوكيات

JOIN US ON facebook CLICK HERE

عباس النهاري

يا الله ....

■ سبحان الصبور على خلقه يخلق ويعبد غيره ، يرزق ويشكر سواه ، خيره إلى العباد نازل وشرهم إليه صاعد ، يتحبب إلى عباده بالنعم ويتبغضون إليه بالمعاصي..

فسبحانك ربي ما أحلمك على من عصاك ، وما أقربك ممن ناجاك ، وما أرأفك بمن أملك ..

سبحانك .. سبحانك .. سبحانك

غالب السميعي

أسس الفقر

قال أحد الحكماء: من أراد النجاح في هذا العالم عليه أن يتغلّب على أسس الفقر الستة (النوم – التراخي – الخوف – الغضب – الكسل – المماطلة.)